العلاقات التجارية بين مدينتي عدن وزيلع في العصر الإسلامي

د. معمر الهادي القرقوطي
جامعة الجبل الغربي بالزاوية - ليبيا

ملخص

العلاقات التجارية بين جنوب الجزيرة العربية وساحل شرق أفريقيا علاقات قديمة تعود إلى ما قبل الإسلام، تشهد على ذلك المراكز والمحطات التجارية التي أقامها العرب على طول الساحل الصومالي الشرقي، وقد كانت التجارة بين الحبشة وجزيرة العرب في تزايد مستمر، وتطورت هذه العلاقات مع بزوغ فجر الإسلام، فقد امتد نشاط أهل اليمن والحجاز والخليج العربي امتداداً واسعاً، حتى شمل بلاد السند وشرق آسيا ، والعراق والشام غرباً ومصر وبلاد الحبشة وسائر بلاد ساحل شرق أفريقيا جنوباً. وفي هذه المشاركة جعلت موضوع هذا البحث يتركز في جانب من تلك العلاقات وهي العلاقات التجارية بين مدينتي عدن وزيلع في العصر الإسلامي.

1- مقدمة

ترجع العلاقات التجارية بين مدينتي عدن وزيلع إلى أهمية موقع المدينتين الجغرافي، حيث تعد زيلع أشهر مدن الساحل الصومالي،فهي تحتل موقعاً استراتيجياً عند مدخل باب المندب،مما جعلها تتبوأ مكانة بارزة بين موانئ الساحل الصومالي بالنسبة لعملية التبادل التجاري بين الداخل الأفريقي والمحيط الهندي والبحر الأحمر.

بينما يقع بعدن أكبر موانئ اليمن من الجهة المقابلة لمدينة زيلع، فعلى خليج عدن تستقبل السفن القادمة من بلاد الصومال والهند والصين وسيلان وجزر الشرق الأقصى، فتفرغ ما تحمله من بضائع ثم تحمل من عدن وتنقل إلى الحجاز ومصر والشام براً وبحراً وبالعكس.

ومما هو ملاحظ أن المدينتين ترتبطان بعدد من الطرق البرية والبحرية ذات أهمية محلية وإقليمية ، ولعل من أبرزها ما يربط بين عدن وزيلع عبر بحر العرب.

ونظراً لهذه الأهمية فإن التعرف إلى نوع العلاقة التي تربطهما تستوجب أن نلمح لموقعهما الجغرافي وطرق النقل التجاري بينهما، وكذلك التطرق إلى نوع هذه العلاقة، وهل كان بينهما صراع وتنافس أم تعاون وتكامل؟

2- العلاقات التجارية بين مدينتي عدن وزيلع في العصر الإسلامي

تعد مدينة عدن من أهم مدن اليمن التجارية منذ أقدم العصور، بوصفها ميناءً بحرياً ممتازاً، فهو يمتد من خليج السويس غرباً إلى رأس الخليج العربي شرقاً (يقع علي بعد 170كم شرق مضيق باب المندب)، فكانت بمثابة الشريان الذي يربط بين قارات العالم القديم، أفريقيا غرباً وآسيا شرقاً وأوروبا شمالاً، مما أهّل أهل اليمن بأن يكونوا تجارا، وأن يقوموا بدور الوسيط التجاري بين شرقي آسيا وأفريقيا وكذلك إقليم البحر المتوسط والعكس.

وقد حاول الرومان الاستيلاء على مدينة عدن- مفتاح البحر الأحمر- والجنوب العربي، ليتسنى لهم السيطرة على تجارة البحر الأحمر ولكن دون جدوى، فاستمرت للعرب الجنوبيين أهل سبأ وحمير وكذلك الأنباط عرب الشمال، ويذكر جورج حوراني أن ميناء عدن كان في القرن الأول الميلادي ((مزدحماً بأصحاب السفن والملاحيين العرب

وفي شغل شاغل بشؤون التجارة، فهم يتجرون مع الساحل البعيد: أرتيريا والصومال ومع يربجازا ويبعثون بسفنهم إليها))[العرب والملاحة في المحيط الهندي ص 82]

وقد شهدت تجارة الرومان تراجعاً في البحر الأحمر والمحيط الهندي خلال القرن الثالث الميلادي، وبرزت تجارة الفرس كمنافس لها في المنطقة خاصة في عهد ملكهم أردشير الأول (225-241 م)، الذي عمل على توطيد علاقاته التجارية مع الهند والصين والقرن الأفريقي [العرب والملاحة في المحيط الهندي ص 91] وبدأت مملكة أكسوم في الحبشة تحاول بسط نفوذها على البحر الأحمر وبلاد اليمن [العرب والملاحة في المحيط الهندي ص 95].

واستطاعت الدولة الفاطمية إقامة علاقات وطيدة مع الدول المطلة على البحر الأحمر خاصة اليمن ، وسيطرت على ميناء عيذاب ، حيث كانت التجارة الهندية وغيرها تصل إلى عدن ومنها تنقل بحرا إلى ميناء عيذاب ومنها عن طريق القوافل عبر الصحراء إلى قوص (مدينة شرق النيل في أعلى الصعيد) وأعادت بذالك لموانئ جنوب الجزيرة العربية أهميتها التجارية .

ويتحدث المقدسي في كتابه: أحسن التقاسيم في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي عن مدينة عدن ونشاطها التجاري بقوله: ((بلد جليل عامر آهل حصين، دهليز الصين وفرضة اليمن، وخزانة المغرب ومعدن التجارات، كثير القصور، مبارك على من دخله مثير لمن سكنه، مساجده حسان، ومعايش واسعة، فأخلاق طاهرة، ونعم ظاهرة))[أحسن التقاسيم، ص 85]

وفي هذا النص يتحدث المقدسي عن مدينة عدن ، فيبدأ بوصف موقع المدينة بأنه موقع محصن مما ساعد ذلك على إعمارها ، ويعرض الازدهار الاقتصادي الذي شهدته عدن في هذه الفترة من ازدهار تجاري عاد بالنفع على أهلها وعلى من سكنها، وأنها دهليز الصين والمنفذ الرئيس لليمن ومخزن لبضائع المغرب[شرق أفريقيا]، ثم يتعرض لوصف عمران المدينة، فيشيد بكثرة قصورها، وجمال مساجدها، وأشار إلى حسن أخلاق أهلها.

وفي موضع آخر من الكتاب ينقل لنا المقدسي أثناء إقامته في اليمن أشهر السلع التي كانت رائجة في اليمن بقوله: ((اليمن معدن العصائب والعقيق والأدم والبرود والشروب والرقيق والمسك والزعفران.....وكانت تجارة المشرق تدر أرباحاً طائلة على التجار وبتجارات الصين تضرب الأمثال))[أحسن التقاسيم، ص 97].

ونظراً لأهمية مدينة عدن التجارية فقد تشكلت طرق محلية ودولية تصلها بالبلاد المجاورة كافة منها الطريق البحري الذي يبدأ من البصرة ويمتد عبر الخليج العربي وخليج عمان إلى مسقط الواقعة جنوب شرق شبه الجزيرة العربية بمحاذاة الساحل مروراً بظفار جنوب شرق اليمن، ومنها يسير إلى عدن، وفي عدن يلتقي هذا الطريق بالطريق البحري القادم من زنجبار الواقعة علي الشاطئ الشرقي لأفريقية [مدن وشعوب إسلامية، جـ4،ص 403] وعند مدينة عدن يتجه الطريق إلى جهة الشمال ماراً بالبحر الأحمر عبر مضيق باب المندب حتى يصل مدينة زبيد ملتقى تجار الحجاز والحبشة ومصر، ثم إلى الحديدة ميناء صنعاء، حتى يصل إلى ميناء جدة ملتقى الحجيج المتجهين إلى مكة ثم يصل إلى خليج السويس [تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين، ص60] وبالإضافة إلى هذا الطريق الذي يذكره عباس إسماعيل هناك عدة طرق أخري أعطت عدن حيوية منها:

الطريق البري الذي يبدأ من المكلا، مرورا بعدن وصنعاء ومكة، ومنها يتفرع إلي فرعين: الأول يتجه إلي مسقط وتتفرع منه عدة فروع فإلى بغداد والبصرة ومضيق هرمز والثاني:

يتجه إلى المدينة المنورة وهناك يتفرع إلى عدة طرق باتجاه بغداد وأيله وينبع [الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي من 61]

إن أهمية مدينة عدن التجارية نكتشفها من خلال ما يورده لنا الشريف الإدريسي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي بقوله: ((إنها مرسى [البحرين] ومنها تسافر مراكب السند والهند والصين، وإليها يجلب متاع الصين))[نزهة المشتاق، جـ1، ص 54] وفي القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي يشيد الرحالة ابن بطوطة في رحلته المسماة تحفة النظار- بأهمية مدينة عدن التجارية فيقول : ((مدينة عدن مرسى بلاد اليمن، على ساحل البحر الأعظم ..... وهي مرسى أهل الهند. تأتي إليها المراكب العظيمة من كنبايت وتانه وكولم وقالقوط وفندرانية والشالبات ومنجرور وفاكتور وهنور وسندابور وغيرها)) [تحفة النظار ص 229]، وتقدر المراكب التي تدخل عدن في العهد الأيوبي مابين 70،80 مركبا محملة بمتاجر الهند والصين [بني رسول في اليمن، ص389] وكانت جميع سفن الحبشة وشرق أفريقيا ترسو بميناء عدن [القرن الأفريقي، نصوص ووثائق من المصادر العربية، ص 222].

وإذا انتقلنا إلى مدينة زيلع نجد أنها تمثل موقعاً استراتيجياً علي الساحل الصومالي على بعد خمسين ميلا جنوب مضيق باب المندب [الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مدن الساحل الصومالي، ص 26]، وهو ما جعلها تتبوأ مكانة بارزة في العصر الوسيط، وتلعب دوراً في ربط تجارة الداخل الأفريقي وعالم المحيط الهندي، وهي تعد منفذ بلاد الحبشة الوحيد عبر المحيط الهندي والبحر الأحمر، وقد اتسع مدلول اسم مدينة زيلع في القرن الثالث عشر الميلادي، حيث أطلق على ما كان يعرف بمدن الطراز الإسلامي (بلاد الزيلع) [بلاد القرن الأفريقي نصوص ووثائق من المصادر العربية، ص 171]، ولا نبالغ عندما نقول إنها كانت عاصمة اقتصادية لبلاد واسعة في الشرق الأفريقي، وقد نالت اهتماماً كبيراً من المصادر العربية التي اهتمت بتاريخ المنطقة.

فكل من اليعقوبي والمسعودي والإدريسي وغيرهم .... أشاروا إلى أهمية هذه المدينة، ومالها من دور فعال في ربط بلاد الشرق الأفريقي وأفريقيا عموماً بتجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي- فالإدريسي يقول: ((إنها مدينة على ساحل البحر المتصل بالقلزم، وهي صغيرة القطر كثيرة الناس والمسافرون إليها كثير، وأكثر مراكب القلزم تصل إلى هذه المدينة بأنواع من التجارات التي يتعرف بها في البلاد الحبشة، ويخرج منها الرقيق والفضة))[نزهة المشتاق، جـ1، ص 44].

ويؤكد الدمشقي في أوائل القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي أن مدينة زيلع كانت إحدى المحطات الرئيسة التي تمر بها المراكب بقوله: ((إن أهل المركب بعد أن يتجاوزوا جبل خافوني يمرون بأرض الهاوية ..... ثم ساحل زنجبار وأرض زيلع ثم بلاد البجة ..... (جزيرة دهلك)... ثم إلى جزيرة سوآلن إلى عيذاب))[نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص 151].

وفي نهاية القرن الثامن الهجري، يقول ابن بطوطة عن مدينة زيلع إنها: ((مدينة كبيرة لها سوق عظيمة إلا أنها أقذر مدينة في المعمورة وأوحشها وأكثرها نتناً))[تحفة النظار، ص230] وكثرة القاذورات في المدينة دليل على أنها فعلاً مدينة كبيرة ومكتظة بالسكان ودليل علي تكدس السلع بها، وهذا أمر طبيعي نجده في بعض المدن الكبيرة المزدحمة بالسكان في الوقت الحاضر.

ومن زيلع كانت تصدر منتجات الحبشة والصومال وفي مقدمتها الجلود والصمغ والسمن والعاج وعطر الزباد وتصل إليها الواردات كالأقمشة والتمور والأسلحة والأواني الخزفية [الحبشة عربية الأصول والثقافة، ص94].

وبالإضافة إلى النشاط التجاري انتشر الإسلام عن طريق المراكز التجارية التي تأسست على الساحل الأفريقي، ومن بينها زيلع بين القبائل الرحل في السهول الساحلية والمنخفضات مثل قبائل البجة وقبائل عَفَر (الدناقل)، وذلك عن طريق القوافل التجارية التي تتجه من زيلع إلى مدينة هرر(حرر) ومنها إلى الهضبة.

وكانت هناك عدة عوامل ساعدت على انتشار الإسلام وجذب المسلمين إلى شرق أفريقيا غير التجارة، منها القرب (نحو1700 ميل) بين زنجبار وعدن، وكذلك العامل الجغرافي الذي أسهم في دعم وتطوير العلاقة بين سكان شرق أفريقيا والعرب المهاجرين إليه ، فقد كان هبوب الرياح من مواطن المسلمين في فصل الشتاء نحو شرقي إفريقيا والعكس في فصل الربيع عاملا مهما في تطوير هذه العلاقات فضلا عن طبيعة الجزيرة الطاردة التي أسهمت في دفع أهل اليمن إلى الاتجار فوطدوا علاقاتهم مع زنجبار و كلوة و زيلع وممبسة .....إلخ ، وقد كان لهذه الهجرات بصماتها في نشر اللغة العربية والعقيدة الإسلامية .

إن ازدهار العلاقات التجارية التي شهدتها المنطقة بين الجزيرة العربية وبلاد ساحل شرق أفريقيا، وبين مدينتي عدن وزيلع على وجه الخصوص، كان نتيجة لوقوع مدينة زيلع في منطقة تمتاز بقربها الشديد من جنوب الجزيرة العربية ومن مدينة عدن تحديداً، كما كانت أقرب مدخل إلى هضبة الحبشة وبالخصوص منطقة هرر [الإسلام وأثيوبيا، ص 155] فقد كانت من بين محطات السفن التي تحمل البضائع إلي الساحل وإلى داخل الحبشة، وأصبحت محطة تصدير لبضائع أفريقيا من عاج وبخور ولبان ورقيق وغيرها. وفي هذا الصدد يفيدنا كذلك ابن حوقل في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بأن زيلع كانت محطة عبور للبضائع نحو الحجاز واليمن وعدن بقوله: ((وما كان من جلود النمور وجلود البقر الملمعّة، وأكثر جلود اليمن تديغ للنعال من ناحيتهم (الأحباش) إلى عدوة عدن وعدوة اليمن .... وعلى شط البحر بنوا حيهم منهل يقال له زيلع فرضة للعبور، إلى الحجاز واليمن)) [صورة الأرض 56/1]

ويبدو من خلال هذا النص أن تجارة الجلود كانت من أكثر السلع التجارية الرائجة التي يجلبها التجار إلى عدن من أسواق شرق أفريقيا عن طريق زيلع ونظراً لازدهار العلاقات التجارية بين عدن وزيلع فقد كانت معظم السفن تبحر على طول الساحل حتى تصل مدينة عدن المكان الذي يستحسنه التجار لأنه يجلب إليهم كثيراً من المنافع، فتلتقي جميع سفن المحيط الهندي، ثم تتحول بعد ذلك إلى ساحل بلاد الصومال إلى مدينة زيلع إحدى المحطات الرئيسة، ونجد أهل زيلع يكثرون التردد على مدينة عدن سواءً للتجارة أم عند مرورهم للحج، فيذكر ابن سعيد المغربي في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، أن أهل الزيلع يكثرون الحج والتردد إلى ساحل عدن وزبيد، وهي محط حط واقلاع [كتاب الجغرافيا ، ص99] .

ويخبرنا ابن بطوطة أنه سافر من مدينة عدن في البحر إلى مدينة زيلع واستغرقت رحلته أربعة أيام [تحفة النظار، ص 229] مما يدل على قرب مدينة زيلع من مدينة عدن، وهذا يعطي انطباعاً أن عدن وزيلع لا تربطهما علاقات تجارية فحسب، بل هناك علاقات شتي غير التجارة منها علاقة الجوار وكذلك علاقة الدين، فأهل زيلع يدينون بالإسلام فهم ((طائفة من السودان شافعية المذهب))[تحفة النظار ص 229]

ويذكر ياقوت الحموي أن مدينة زيلع على ساحل البحر من ناحية الحبشة بها طوائف من السودان وقال إنهم مسلمون [معجم البلدان 64/3].

لقد كان لأهل عدن أثرهم البالغ في توطيد علاقاتهم التجارية مع مدينة زيلع وبقية الساحل الأفريقي والهند والصين وبلاد الشام ومصر والجزيرة العربية أيضاً لما يتصفون به من أخلاق حميدة ونفوس طيبة، فيشيد ابن بطوطة بذلك قائلا: (((أهل عدن) أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق يحسنون إلي الغريب ويؤثرون الفقير ويعطون حق الله في الزكاة على من يجب)) [تحفة النظار، ص 229] وهو ما جعل التجار يتقاطرون على المدينة من زيلع والهند والصين وغيرها، ونالت من هذا الصفات استحسان التجار، وآثر بعضهم البقاء في عدن والعمل بها، فراجت التجارة وازدهرت المدينة وتمكن تجار عدن من امتلاك ثروات هائلة وأصبحوا يعدّون من كبار التجار ((وربما كان لأحدهم (تجار عدن) المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره، لسعة مابين يديه من الأموال، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة)) [تحفة النظار، ص 229].

3- الخلاصة :

من خلال استعراضنا لموقع المدينتين وعلاقتهما التجارية نلاحظ أن الوحدة الدينية خاصة في العصور الوسطى، تعد عاملاً ماعداً على توثيق الصلة بين الطرفين المتعاملين، وبالفعل فقد كان انتماء أهل عدن وأهل زيلع إلى ديانة واحدة هي الديانة الإسلامية حافزاً على توثيق الصلة وتنشيط المبادلات التجارية بينهما، مما أدى إلى اندماج تجار زيلع بالتجار اليمنيين في عدن والعكس.

ومن الطبيعي لوجود أي نشاط تجاري بين شركتين أن يكون هناك استقرار، ولا يتأتى هذا إلا في ظل النظام السياسي. وإذا كانت مدينة عدن تنعم بذلك في ظل حكم بني رسول فقد وجد في مدينة زيلع الظروف نفسها، وقد أدى ذلك إلى توطيد أواصر الصداقة بين أهل المدينتين وأعطى التجارة استمراراً وحيوية.

وفي نهاية المطاف نلاحظ أن مدينة زيلع كانت تستفيد من مدينة عدن بقدر ما كانت عدن تستفيد من زيلع، فكان التعاون بينهما ظاهراً وواضحاً لتنمية موراد المدينتين وبذلك أصبح هناك قاسم مشترك يجمع بينهما، تمثل في مصالح متبادلة ومشتركة، وكان للعلاقات التجارية

بين عدن وزيلع خلال العصر الوسيط المزايا التي انعكست على قارات العالم القديم (أفريقيا، آسيا، أوروبا) وعلى الساحل الصومالي وجنوب الجزيرة العربية؛ فازدهرت التجارة في تلك الفترة، فقد كانت المدينتان ركيزتين للجسر الذي يربط التجارة العالمية عبر خليج عدن.

وفي العصر الحديث نلاحظ تعرض المدينتين لأطماع استعمارية واحدة ، فعندما حاول البرتغاليون احتلال عدن سنة 1513م ،وأخفقوا في الاستيلاء عليها بفضل مقاومة أهلها ومناعة أسوارها، عادوا إلى جزيرة كمران (قمران) المقابل للساحل اليمني ومنها أرسلوا سفينتين إلى زيلع وعدن لضربهما .

4- المصادر والمراجع:

1. جورج حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة 1958م.
2. المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليون، 1904م.
3. حسان حلاق، مدن وشعوب إسلامية، بيروت،د.ت.

4. محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي-أبو عبد الله، ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المكتبة التوفيقية- القاهرة- د.ت.
5. عباس إسماعيل صبّاغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية، الحرب والسلام بين العثمانيين والصفويين، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- 1999م.
6. عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان- بيروت، 1984.
7. الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق المجلد الأول، عالم الكتب- بيروت 1989م.
8. محمد عبد العال، بني رسول في اليمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب- الإسكندرية، 1980م.
9. أندريه ميكيل- الإسلام وحضارته، ترجمة الدكتورة زينب عبد العزيز، منشورات المكتبة العصرية- القاهرة 1981م.
10. محمود عصام الميداني- الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي- دار دمشق للنشر والتوزيع والطباعة- سوريا، 2004م.
11. عمر المشري محمد، بلاد القرن الأفريقي- نصوص ووثائق من المصادر العربية، شعبة التثقيف والإعلام والتعبئة- طرابلس، 1998.
12. زين العابدين عبد الحميد السراج، الحياة الاجتماعية في مدن الساحل الصومالي فيما بين القرنين 6-8 هـ/12-14 م رسالة دكتوراه غير منشورة كلية الآداب- جامعة القاهرة- 1993م.
13. شمس الدين بن عبد الله الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر- منشورات مكتبة المثنى- بغداد، د.ت.
14. أمين توفيق الطيبي، الحبشة عربية الأصول والثقافة، منشورات مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية- الجماهيرية، 1993م.
15. زاهر رياض، الإسلام في أثيوبيا في العصور الوسطى، دار المعرفة- القاهرة- د.ت.
16. علي بن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، بيروت، 1970م.
17. ياقوت الحموي، معجم البلدان المجلد الثالث، دار صادر- بيروت، 1995م.